اسم الدرس : تفسير سورة المدثر

تصنيف الدرس : خطبة

إن الحمدلله، نحمده، ونستعينه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد ألا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله –صلى الله عليه وسلم–، تكلمنا المرة السابقة منذ أسابيع في شرح يسير لسورة العلق، وبإذن الله –عز وجل– سنتكلم عن سورة المدثر في هذا المجلس.

نسأل الله –عز وجل– أن يتقبله منا، هذا المجلس يعتبر بدايات تعريف بالسور، بحيث أن الإنسان عندما يصلي بهذه السورة، أو يعيش بها، نكون كمن يقدم له مجرد تمرات يتذوق بها المعاني العامة في السورة لأن معاني الكتاب لا تنفد أبدًا. على مدار أزمنة ومع تجدد الأحداث معاني كتاب الله –عز وجل– فياضة لا تنضب أبدًا؛ فمعاني كتاب الله –عز وجل– مورد مَعِين الناس تنهل منه، كلما يُقبلوا على كتاب الله أكثر يعطيهم الكتاب أكثر، لحل المشاكل التي يقابلها الناس في دينهم أو دنياهم، على مستوى الفرد أو الجماعات أو على مستوى الأمم، فكتاب الله –عز وجل– يبقى هو السبب، الحبل طرفه بيد الله –عز وجل– وطرفه بأيدينا، هو العلاقة التي يمكن أن ننجو بها في هذه الدنيا، فالإنسان يرتبط بالله –عز وجل– يرتبط بصفة من صفاته عن طريق كلام الله –سبحانه وتعالى– لا بد أن نجدد في كل مرة ونذكر أنفسنا أن هذا الكتاب هو النور المبين الذى أنزله الله –عز وجل– ليخرجنا من الظلمات إلى النور.

فسريعًا اليوم نمر على معاني عامة في سورة المدثر، وقيل أنها ثاني سورة نزلت بعد العلق، أو مقدمة هذه السورة نزلت بعد سورة العلق، نبدأ سويًا بإذن الله –عز وجل– ونسأله أن يعيننا وأن يفتح علينا.

يقول ربنا –سبحانه وتعالى– في بداية السورة {يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ (*) قُمْ فَأَنذِرْ (*) وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ (*) وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ (*) وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ (*) وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ (*) وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ} [المدثر: 1-7] هذه السبع آيات المتتاليات بخطاب متتالٍ للنبي –صلى الله عليه وسلم– معطوف بعضها على بعض، هي خطاب للنبي –صلى الله عليه وسلم– {يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ (*) قُمْ فَأَنذِرْ} المدثر: قالوا أصلها المتدثر "أي أدغمت التاء في الدال"، المتدثر أي المتغطي بثيابه. لما رجع النبي –صلى الله عليه وسلم– بالآيات التي أنزلت عليه، رجع يرجف فؤاده، فقال: (زَمِّلُونِي زَمِّلُونِي) أو (دثِّروني دثِّروني) [1] فنزلت الآيات {يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ}، وقيل في

[1]- [عن جابر بن عبدالله:] سَمِعْتُ النبيَّ ρ وهو يُحَدِّثُ عن فَتْرَةِ الوَحْيِ، فَقالَ في حَدِيثِهِ: فَبَيْنا أنا أمْشِي إذْ سَمِعْتُ صَوْتًا مِنَ السَّماءِ فَرَفَعْتُ رَأْسِي، فَإذا المَلَكُ الذي جاءَنِي بحِراءٍ جالِسٌ على كُرْسِيٍّ بيْنَ السَّماءِ والأرْضِ، فَجَئِثْتُ منه رُعْبًا، فَرَجَعْتُ فَقُلْتُ: زَمِّلُونِي زَمِّلُونِي، فَدَثَّرُونِي،

نزولها أقوال كثيرة منها أن النبي –صلى الله عليه وسلم– بلغه أن الوليد بن المغيرة صنع طعامًا لقريش، واجتمعوا على أن يصفوا القرءان بوصف ليصرفوا الناس عن سماع كلام الله –عز وجل– فاغتمّ النبي –صلى الله عليه وسلم– لذلك وتدثر فنزلت{يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ}[2]... وقيل بتكرار نزولها، وقيل نزلت أول سبع آيات في أول المرحلة السرية أي في أول البعثة وبعد ثلاث سنوات في بداية المرحلة الجهرية نزلت أيضًا بتكرار السبع آيات الأُوَل ومعها جزء كبير من السورة.. أيًا كان تعالوا نعش معًا جو الآيات؛ ربنا يقول –سبحانه وتعالى– يقول للنبي –صلى الله عليه وسلم– {يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ} ما الفرق بين: المدثر والمزمل؟ اللهم يسر لنا أن نشرح سويًا سورة المزمل... قيل أن المزمل: لا بد أن يكون نائمًا إنما المدثر: قد يكون واحدًا يجلس في بيته متدفئًا لكنه ليس نائمًا، وعلى هذا الوضع فهناك نوع من الخمول، أما المزمل فيكون نائمًا.

فقال بعض المفسرين نزلت المزمل فقام النبي –صلى الله عليه وسلم– من الليل ولكنه كان يجلس في بيته... فنزلت المدثر ألا يكتفي بالقيام بل لا بد أن يخرج للناس، فبالمزمل نزع النبي –صلى الله عليه وسلم– غطاء النوم، وبالمدثر نزع النبي –صلى الله عليه وسلم– غطاء القعود و قام ليدعو، فكأنها كانت مراحلًا.

فأول وقفة نقفها مع السورة؛ كلمة المزمل والمدثر وفيهما كلام كثير لكن لئلا يسرقنا الوقت، قيل لما قال جبريل للنبي اقرأ قال: ما أنَا بقَارِئٍ فضمه حتى بلغ منه الجهد... إلى أن قال: {اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ} [العلق: 1] فقرأ النبي[3] –صلى الله عليه وسلم– إذًا فالنبي –صلى الله عليه وسلم– لما قرأ القرءان

• فأنْزَلَ اللَّهُ تَعالى: {يا أيُّها المُدَّثِّرُ} إلى (والرُّجْزَ فاهْجُرْ) قَبْلَ أنْ تُفْرَضَ الصَّلاةُ وهي الأوْثانُ./ البخاري (٢٥٦ هـ)، صحيح البخاري ٤٩٢٥ [صحيح]

[2] [عن عبدالله بن عباس:] أنَّ الوليدَ بنَ المغيرةِصنعَ لقريشٍ طعامًا فلمّا أكلُوا قال ما تقولونَ في هذا الرجلِ فقال بعضُهم ساحرٌ وقال بعضُهم ليس بساحرٍ وقال بعضُهم كاهنٌ وقال بعضُهم ليس بكاهِنٍ وقال بعضُهم شاعرٌ وقال بعضُهم ليس بشاعرٍ وقال بعضُهم سحرٌ يؤثَرُ [وأجمعَ رأيُهم على أنه سحْرٌ يُؤثَرُ] فبلغ ذلِكَ النبيَّ ρ فحَزِنَ وقنَّعَ رأسَهُ وتدَثَّرَ فأنزل اللهُ عزَّ وجلَّ يا أيُّها المدثِّرُ قُمْ فأنذِرْ وربَّكَ فكبِّرْ وثيابَكَ فطَهِّرْ والرُّجْزَ فاهْجُرْ ولا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرْ وَلِرَبِّكَ فاصْبِرْ/ الهيثمي (٨٠٧ هـ)، مجمع الزوائد ١٣٤/٧ • فيه إبراهيم بن يزيد الخوزي وهو متروك

[3]- [عن عائشة أم المؤمنين:] أَوَّلُ ما بُدِئَ به رَسولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ مِنَ الوَحْيِ الرُّؤْيَا الصَّادِقَةُ في النَّوْمِ، فَكانَ لا يَرَى رُؤْيَا إلَّا جَاءَتْ مِثْلَ فَلَقِ الصُّبْحِ، فَكانَ يَأْتِي حِرَاءً فَيَتَحَنَّثُ فِيهِ، وهو التَّعَبُّدُ، اللَّيَالِيَ ذَوَاتِ العَدَدِ، ويَتَزَوَّدُ لذلكَ، ثُمَّ يَرْجِعُ إلى خَدِيجَةَ فَتُزَوِّدُهُ لِمِثْلِهَا، حتَّى فَجِئَهُ الحَقُّ وهو في غَارِ حِرَاءٍ، فَجَاءَهُ المَلَكُ فِيهِ، فَقالَ: اقْرَأْ، فَقالَ له النبيُّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: فَقُلْتُ: ما أنَا بقَارِئٍ، فأخَذَنِي فَغَطَّنِي حتَّى بَلَغَ مِنِّي الجَهْدُ، ثُمَّ أرْسَلَنِي فَقالَ: اقْرَأْ، فَقُلْتُ: ما أنَا بقَارِئٍ، فأخَذَنِي فَغَطَّنِي الثَّانِيَةَ حتَّى بَلَغَ مِنِّي الجَهْدُ، ثُمَّ أرْسَلَنِي فَقالَ: اقْرَأْ، فَقُلْتُ: ما أنَا بقَارِئٍ، فأخَذَنِي فَغَطَّنِي الثَّالِثَةَ حتَّى بَلَغَ مِنِّي الجَهْدُ، ثُمَّ أرْسَلَنِي فَقالَ: {اقْرَأْ باسْمِ رَبِّكَ الذي خَلَقَ} [العلق: ١]- حتَّى بَلَغَ - {عَلَّمَ الإنْسَانَ ما لَمْ يَعْلَمْ} [العلق: ٥] فَرَجَعَ بهَا تَرْجُفُ بَوَادِرُهُ، حتَّى دَخَلَ علَى خَدِيجَةَ، فَقالَ: زَمِّلُونِي زَمِّلُونِي فَزَمَّلُوهُ حتَّى ذَهَبَ عنْه الرَّوْعُ، فَقالَ: يا خَدِيجَةُ، ما لِي وأَخْبَرَهَا الخَبَرَ، وقالَ: قدْ خَشِيتُ علَى نَفْسِي فَقالَتْ له: كَلَّا، أبْشِرْ، فَوَاللَّهِ لا يُخْزِيكَ اللَّهُ أبَدًا، إنَّكَ لَتَصِلُ الرَّحِمَ، وتَصْدُقُ الحَدِيثَ، وتَحْمِلُ الكَلَّ، وتَقْرِي الضَّيْفَ، وتُعِينُ علَى نَوَائِبِ الحَقِّ، ثُمَّ انْطَلَقَتْ به خَدِيجَةُ حتَّى أتَتْ به ورَقَةَ بنَ نَوْفَلِ بنِ أسَدِ بنِ عبدِ العُزَّى بنِ قُصَيٍّ وهو ابنُ

ثم عاد إلى بيته فنام فأنزل الله {يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ} [المزمل: 1] ثم {يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ} لأن القضية ليست أنك قرأت وبعدها تنام! القضية أن تقوم بهذه الآيات عبادة ودعوة، لا بد أن يقوم النبي –صلى الله عليه وسلم–.

مثلًا في واقعنا أن يذاكر أحد سورة أو يتعلم معاني سورة مثلًا سورة مثل هذه، أو يقرأ سورة مثلًا أو يطلب العلم خاصةً في الأوساط السلفية يتعلم ويطلب علم ثم ماذا بعد العلم؟ ليست القضية أن تطلب علمًا ثم تنام! بعد أن تقرأ وبعد أن تفهم، لابد أن تقوم، لذلك {يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ (*) قُمِ} [المزمل: 1-2] و { يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ (*) قُمْ} [المدثر: 1-2] ! ليست القضية أنك تعلمت –وهذه مرحلة هامة– ولكن ماذا بعد أن قرأت وتعلمت؟ لا بد أن تقوم بآيات الله عبادة في نفسك ودعوة لغيرك وهذا منهج حياة، وهذا ما ينقصنا... فنحن نعرف كيف نتعلم ولكن لا نقوم بهذه الآيات ولا نتخلق بها! كان النبي –صلى الله عليه وسلم– خُلقه القرءان، فيجاهد النبي –صلى الله عليه وسلم–نفسه كي يتخلق بهذه الآيات وهذه المعاني، فكان يقوم بهذه الآيات ويجاهد في سبيل الله لنشرها، و يبلغ عن الله –عز وجل– ولو آية، ويقوم فينذر.

إذًا لماذا المدثر والمزمل بعد اقرأ؟ لأن القضية ليست أن تقرأ وتتعلم وتنام. عندما تفهم سورة المفترض أن كل سورة وكل آية تتعلمها تُذهِب عنك قسطًا من النوم {وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ} [الإسراء: 79] ألق عن نفسك الهجود –أي النوم– بالقرءان، فكل معنى إيماني تتعلمه وتقرأه في القرءان ويستقر في قلبك يُذهب عنك جزءًا وقسطًا من متاع الدنيا. قلنا التزمل هو النوم والتدثر هو الخمول والرخاء... النبي –صلى الله عليه وسلم– قال: (الأنصارُ شِعارٌ، والناسُ دِثارٌ) [4] الشعار: ما يلي الجسد، والدثار:

عَمّ خَدِيجَةَ أخُو أبِيهَا، وكانَ امْرَأً تَنَصَّرَ في الجَاهِلِيَّةِ، وكانَ يَكْتُبُ الكِتَابَ العَرَبِيَّ، فَيَكْتُبُ بالعَرَبِيَّةِ مِنَ الإنْجِيلِ ما شَاءَ اللَّهُ أنْ يَكْتُبَ، وكانَ شيخًا كَبِيرًا قدْ عَمِيَ، فَقالَتْ له خَدِيجَةُ: أي ابْنَ عَمِّ، اسْمَعْ مِنَ ابْنِ أخِيكَ، فَقالَ ورَقَةُ: ابْنَ أخِي مَاذَا تَرَى؟ فأخْبَرَهُ النبيُّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ ما رَأَى، فَقالَ ورَقَةُ: هذا النَّامُوسُ الذي أُنْزِلَ علَى مُوسَى، يا لَيْتَنِي فِيهَا جَذَعًا، أكُونُ حَيًّا حِينَ يُخْرِجُكَ قَوْمُكَ. فَقالَ رَسولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: أوَمُخْرِجِيَّ هُمْ فَقالَ ورَقَةُ: نَعَمْ، لَمْ يَأْتِ رَجُلٌ قَطُّ بمِثْلِ ما جِئْتَ به إلَّا عُودِيَ، وإنْ يُدْرِكْنِي يَوْمُكَ أنْصُرْكَ نَصْرًا مُؤَزَّرًا، ثُمَّ لَمْ يَنْشَبْ ورَقَةُ أنْ تُوُفِّيَ، وفَتَرَ الوَحْيُ فَتْرَةً حتَّى حَزِنَ النبيُّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، فِيما بَلَغَنَا، حُزْنًا غَدَا منه مِرَارًا كَيْ يَتَرَدَّى مِن رُؤُوسِ شَوَاهِقِ الجِبَالِ، فَكُلَّما أوْفَى بذِرْوَةِ جَبَلٍ لِكَيْ يُلْقِيَ منه نَفْسَهُ تَبَدَّى له جِبْرِيلُ، فَقالَ: يا مُحَمَّدُ، إنَّكَ رَسولُ اللَّهِ حَقًّا، فَيَسْكُنُ لِذلكَ جَأْشُهُ، وتَقِرُّ نَفْسُهُ، فَيَرْجِعُ، فَإذَا طَالَتْ عليه فَتْرَةُ الوَحْيِ غَدَا لِمِثْلِ ذلكَ، فَإذَا أوْفَى بذِرْوَةِ جَبَلٍ تَبَدَّى له جِبْرِيلُ فَقالَ له مِثْلَ ذلكَ./البخاري (٢٥٦ هـ)، صحيح البخاري ٦٩٨٢ • [صحيح].

[4]- [عن أبي سعيد الخدري:] لمّا أعطى رسولُ اللهِ - ρ - ما أعطى مِن تلك العطايا في قُرَيشٍ، وفي قبائلِ العرَبِ، ولم يكُنْ في الأنصارِ منها شيءٌ، وجَد هذا الحيُّ مِن الأنصارِ في أنفسِهم حتى كثُرَتْ فيهم القالَةُ، حتى قال قائلُهم: لَقِيَ واللهِ رسولُ اللهِ - ρ - قومَهُ، فدخَل عليه سعدُ بنُ عُبادةَ، فقال: يا رسولَ اللهِ، إنَّ هذا الحيَّ مِن الأنصارِ قد وجَدوا عليك في أنفسِهم لِما صنَعْتَ في هذا الفَيْءِ الذي أصَبْتَ، قسَمْتَ في قومِك، وأعطَيْتَ عطايا عِظامًا في قبائلِ العرَبِ، ولم يكُنْ في هذا الحيِّ مِن الأنصارِ منها شيءٌ، قال: فأين أنتَ مِن ذلك يا سعدُ؟ قال: يا

اللبس الخارجي، وكان أيام الصحابة قلما تجد من الناس من يلبس الدثار بالخارج –العباءة الخارجية– فهذا كان غنيًا، فالتدثر فيه نوع من الرخاء. فكل معنى إيماني يستقر في قلبك يذهب عنك جزءًا من نومك وجزءًا من متاعك الدنيوي.

فقام النبي –صلى الله عليه وسلم– ولم يقعد {يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ (*) قُمْ فَأَنذِرْ} [المدثر: 1-2] كان من الممكن أن ينزلها ربنا –سبحانه وتعالى– "يا أيها المدثر أنذر" لماذا قال للنبي –صلى الله عليه وسلم– قم؟ هل المقصود ألا تدعو إلى الله إلا واقفًا؟ أهذا المقصود؟ لا بالطبع، ليس هذا المقصود، إذًا فما معنى كلمة قم؟ ليس المقصود أن تقف، بل هذه قومة لله –عز وجل– عزيمة وإصرار وأن ما بعد هذه الآيات لا بد أن يكون مختلفًا عما قبل نزولها، منهج حياة جديد، إعلان مفاصلة، إعلان منهج حياة جديد أنه أصبح ينذر الناس، وأصبح عنصرًا فعالًا مغيّرًا في أوساط الناس هذه قومة، فمثلًا إنسان بعدما كان طالبًا؛ حياته تتحول فجأة لشخص متزوج ويعمل في وظيفة فيقول: الحياة في وجود زوجة وأولاد وعمل غير حياتي وأنا مجرد طالب؛ تلك حياة تحتاج بذلًا أكثر فيذهب ويعمل وأولاد ومسؤوليات ومتطلبات. فكذلك بعد {قُمْ فَأَنذِرْ} غير ما قبلها، حياة مختلفة وتفكير مختلف وطريقة حياة مختلفة، هذه هي القومة التي أرادها الله –عز وجل– للنبي –صلى الله عليه وسلم– وللدعاة إلى الله من بعده.

{قُمْ فَأَنذِرْ} البداية كانت بالإنذار ليست بالتبشير، وهكذا دائمًا وأبدًا المجتمعات التي تطول عليها النومة وتطول في الغي والضلال و يطول عليها الظلام، حينما يأتي النور لا بد أن يبدأ بالإنذار حتى يفيق الناس من سكرتهم، لا بد عندما يظل الناس فترة طويلة في الضلال ولا يفكرون في آخرتهم ولا مستقبلهم الأخروي لا بد أن نبدأ بالإنذار فيستيقظ الناس ويفكرون ماذا سيحدث لنا؟ فيبدأ بعد ذلك

رسولَ اللهِ، ما أنا إلا مِن قَوْمي، قال: فاجمَعْ لي قومَك في هذه الحظيرةِ، قال: فجاء رجالٌ مِن المهاجِرينَ، فترَكهم فدخَلوا، وجاء آخَرون فرَدَّهم، فلمّا اجتمَعوا أتى سعدٌ، فقال: قد اجتمَع لك هذا الحيُّ مِن الأنصارِ، فأتاهم رسولُ اللهِ ρ، فحَمِد اللهَ وأثنى عليه بما هو أهلُهُ، ثم قال: يا مَعشَرَ الأنصارِ، ما قالَةٌ بلَغَتْني عنكم، وجِدَةٌ وجَدْتُموها في أنفسِكم؟ ألَم آتِكم ضُلّالًا فهداكمُ اللهُ بي، وعالةً فأغناكمُ اللهُ بي، وأعداءً فألَّف اللهُ بين قلوبِكم؟ قالوا: اللهُ ورسولُهُ آمَنُّ وأفضَلُ، ثم قال: ألا تُجيبوني يا مَعشَرَ الأنصارِ؟ قالوا: بماذا نُجيبُك يا رسولَ اللهِ؟ للهِ ولرسولِهِ المَنُّ والفضلُ، قال: أما واللهِ لو شِئتُم لقُلْتُم، فلَصدَقْتُم ولَصُدِّقْتُم: أتَيْتَنا مكذَّبًا فصدَّقْناك، ومخذولًا فنصَرْناك، وطريدًا فآوَيْناك، وعائلًا فآسَيْناك، أوجَدْتُم عليَّ يا مَعشَرَ الأنصارِ في أنفسِكم في لُعاعةٍ مِن الدُّنيا، تألَّفْتُ بها قومًا ليُسلِموا، ووكَلْتُكم إلى إسلامِكم؟ ألا تَرضَوْنَ يا مَعشَرَ الأنصارِ أن يَذهَبَ الناسُ بالشاءِ والبعيرِ، وتَرجِعون برسولِ اللهِ إلى رحالِكم؟! فوالذي نفسُ محمَّدٍ بيدِهِ، لَما تنقلِبون به خيرٌ مّما ينقلِبون به، ولولا الهجرةُ لكنتُ امرأً مِن الأنصارِ، ولو سلَك الناسُ شِعْبًا ووديًا، وسلَكتِ الأنصارُ شِعْبًا ووديًا، لسلَكْتُ شِعْبَ الأنصارِ ووديَهَا، الأنصارُ شِعارٌ، والناسُ دِثارٌ، اللهمَّ ارحَمِ الأنصارَ، وأبناءَ الأنصارِ، وأبناءَ أبناءِ الأنصارِ، قال: فبكى القومُ حتى أخضَلُوا لِحاهم، وقالوا: رَضِينا برسولِ اللهِ - ρ- قِسْمًا وحظًّا، ثم انصرَف رسولُ اللهِ - ρ - وتفرَّقوا./شعيب الأرنؤوط (١٤٣٨ هـ)، تخريج زاد المعاد ٤١٦/٣ • إسناده صحيح.

الكلام بالتبشير، لكن لا بد من الاستيقاظ أولًا قبل الكلام، لا بد أن يفيق، لن يجدي أن تذهب لشخص نائم تكلمه عن أي شيء إلا بعد أن يفيق.

فالإنذار بمثابة جلسات الاستيقاظ التي تُفيقه، هذا هو الإنذار. فكانت البداية مع مجتمع مكة الذي ظل في ضلاله سنوات يصنعون صنمًا ويعبدونه ثم يأكلونه ثم يصنعون غيره، يئدون البنات ويشربون الخمر، يتقاتلون من أجل ناقة، هذا المجتمع كان لابد له من إنذار حتى يفيق {قُمْ فَأَنذِرْ}.

لابد أن تتخيل حيوية الآيات، هذه الآيات لا تحكي قصة، هذه الآيات وكل القرآن نزل في واقعٍ حيٍ ينبض، فالواقع كان فيه حياة؛ هناك نبي تتنزل عليه الآيات، تطلب منه مطالب، يواجه الأعداء، معه مؤمنين... صراع مرة هكذا ومرة هكذا، تداول، يداول الله عز وجل الأيام، تعذيب، وقوف في وجه الباطل، نُصرة للحق، استشهاد، هذه حيوية الواقع... فكانت تنزل الآيات لتعالج هذا الواقع الحي النابض، لا تنزل لتُكتب لتُنَظِّر لمستقبل يُبنى بعد خمسين سنة، لم ينزل القرآن ليضع خطة خمسينية لواقع لم يكن موجودًا، بل نزل ليعالج واقعًا حيًا، ويرسم له مستقبله أيضًا.

فأول ما تنزل كلمة {قُمْ فَأَنذِرْ} على شخص النبي صلى الله عليه وسلم وهو واحد من قريش يُسمى بالصادق الأمين، تخيل واقع الآيات! أنا مطالب بأن أقوم وسط قبيلتي وبلدي والعالم أجمع لأنذرهم عذاب الله، لن يصدقوني، ومن معي؟! هل ستنزل ملائكة؟ هل سينزل عليَّ كَنز؟ ماذا أقول لهم إن كذبوني؟ ماذا لو قتلوني؟

كل هذا دار في صدر النبي -صلى الله عليه وسلم-.

في صحيح مسلم لما قال الله وعلمه أن يقوم ويدعو الناس قال النبي -صلى الله عليه وسلم- (إذًا يجعلوا رأسي خبزًا يقتلوني يفلجوا رأسي) [5].

قال النبي -صلى الله عليه وسلم- (لقد أُوذيتُ في اللهِ وما يُؤذى أحَدٌ وأُخفت في الله...) [6]، مر النبي -صلى الله عليه وسلم- بهذه المراحل فتنزل الآيات لتعالج هذا، فهذه الآيات عندما تنزل أو هذه الكلمة

---

[5]- لم يصح فيها أثر !

[6]- [عن أنس بن مالك:] لَقَدْ أُخِفْتُ في اللهِ وما يُخافُ أحَدٌ. ولقدْ أوذيتُ في اللهِ وما يُؤذى أحَدٌ. ولقدْ أتَتْ عليَّ ثلاثونَ، من بينِ يومٍ وليلَةٍ، وما لِيَ ولبلالٍ طعامٌ يأكُلُهُ ذو كبِدٍ إلّا شيءٌ يواريه إبطُ بلالٍ./الترمذي (٢٧٩ هـ)، سنن الترمذي ٢٤٧٢ • حسن غريب • أخرجه الترمذي (٢٤٧٢)، وأحمد (١٤٠٥٥) واللفظ لهما، وابن ماجه (١٥١) باختلاف يسير.

{قُمْ فَأَنذِرْ}، معناها تغيير وجهة حياة، معناه منهج حياة مختلف، فكثير من التساؤلات تقع في صدرك لو مثلًا قيل لك: أنت مُطالب بتغيير الجامعة، كمية تساؤلات ستجول في صدرك، ماذا سيكون وضع الأمن والدنيا والناس والمشاكل وحياتي وزوجتي وأولادي وماذا عن المستقبل؟ كمية تساؤلات تجول في صدرك، فحل قطعي لهذه الوساوس وكل ما يدور في صدرك أن تتذكر {وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ} [المدثر: 3] أن توَحِّد وجهتَك، ألا يكون في صدرك غير الله، عندما تُكبر ربك في صدرك، وفي عبادتك، وفي حياتك، وفي كل مكان فسيصغُر في عينك كل شيء، كل شيء سيكون صغيرًا فتتعامل مع الأشياء على قدر قيمتها مثل سيدنا موسى {قَالَا رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَن يَطْغَىٰ (*) قَالَ لَا تَخَافَا ۖ إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ} [طه: 45-46]

فلم يخف، كَبر الله عز وجل في صدره.. سَبح الله {كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا (*) وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا} [طه: 33-34] وقال له ربه {وَلَا تَنِيَا فِي ذِكْرِي} [طه: 42] أي لا تضعفا... فذكر الله كثيرًا فعظُم الله عز وجل في صدره، فذهب إلى فرعون يستحقره ويستصغره، رآه على حقيقته لا يملك لنفسه نفعًا ولا ضرًا فضلًا عن أن يملك لغيره، فلا بد للداعية –أول زاد للداعية– أن يُعظم الله، أن يُكثر من ذكر الله، المصاعب التي ستقابل الداعية لن يستطيع أن يتغلب عليها دون ذكرٍ لله، دون تعظيمٍ لله، الانتفاشات التي ينتفشها الباطل أكثر تأثيرًا على الصدور وعلى العيون وتؤثر تأثيرًا عظيمًا إذا لم يذكر الإنسان الله عز وجل، فإذا ذكر الله اضمحلت هذه الانتفاشات وخنس الشيطان وولى مدبرًا عندما يُعظم الله عز وجل.

{قُمْ فَأَنذِرْ (*) وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ} أول شيء، فلم يقل "وكبر ربك"، و لم يقل "والله كبر أو كبر الله"، بل قال {وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ} ربك الذي طالما غذاك بنعمه تجد أن البدايات المكية تُكثر من ذكر اسم "الرب" {اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ} [العلق: 1] تُكثر من ذكر الربوبية مضافة إلى ضمير المخاطب {وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ (*) وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ} [المدثر: 3-4]، قيل {وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ} أي لا تلبسها على غدر، لا تغدر، وقيل مثلما نقول على شخص "سمعته بيضاء"، هذا يعني أن الداعية لا بد أن تكون سمعته بيضاء، وخاصة في الأموال وفي النساء، أكثر المطاعن تأتي في هذين؛ في الأموال وفي النساء، فلابد أن يكون نظيفًا ظاهرًا وباطنًا، ثيابه طاهرة نظيفة، والباطن نظيف لا يحمل حقدًا لأحد، ولا حسدًا لأحد، ولا يُفكر في دنيا غيره، ولا يُفكر في الدنيا، ولا يغدِر بالناس، ولا ينطوي باطنه على أي شيءٍ لا يُرضي الله عز وجل، {وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ} لا بد أن يكون الداعية سمعته نظيفة، وذلك حتى لا يجدوا فيه مطعنًا عندما ينشر الدعوة بين الناس.

وقيل {وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ} وكأنها إشارة إلى الثياب التي كانت قبل النبوة تُنزع ويأتي بثياب جديدة -أي أمر مجازي- نوع من تغيير الحياة، مثلًا عندما يلبس شخص لباس العمل، هذا العمل يحتاج لباسًا معينًا، فلا يصلح أن يذهب لهذا العمل بملابس أنيقة، هذه ليست لهذا العمل، فيبدأ في تغيير ملابسه و لبس ملابس العمل، إذًا إشارة -كما قلنا- إلى تغيير الحياة وأسلوب الحياة. {وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ} قيل الأمر الظاهر، والأمر الباطن... الأخلاق والأعمال.

{وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ} [المدثر: 5] أيُّ موطن لا يُرضي الله عز وجل لا يقترب منه لم يقل "والرجز فاترك" ولكن قال {وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ}، من البداية توطين النفس على الهجران؛ أن يهجر أشياءً.. من البداية لا بد من عبادة تُسمى الهجر -الترك لله-. سيحدث هذا، أن تترك أماكنَ كنت ترتادها.. لن ترتادها بعد الآن، قيل الرجز: النجاسة أو الشرك أو التعلق بالأوثان أو التعلق بغير الله أو أي شيء يجلب العذاب... جامع الأقوال أيّ موطن أو شيء يجلب العذاب لم يقل: اتركه ولكن قال: اهجره {وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ}.

كل هذا قبل ما ربنا سبحانه وتعالى يخبره بماذا ينذر أو أنواع الناس الذين سيقابلونه... فأنت ستقابل أنواعًا كثيرة من الناس، القرآن يعلمنا مَن سنجد وكيف سنتصرف معه، وما هي طريقة تفكير المقابل -العدو- كيف يفكر أو ما هي مشكلته؟ أو كيف تتطرق إلى مداخل قلبه؟ قبل كل هذا؛ تأتي النصائح العامة التي قيل أنها نزلت أولًا. وكأن النبي -صلى الله عليه وسلم- مُطالب قبل أن يخرج للدعوة الجهرية، قبل أن يخرج للناس؛ عليه أن يعيش مع هذه المعاني أولًا بينه وبين إخوانه وأصحابه وعائلته، يعيش أولًا هذه المعاني... كأنك قبل أن تخرج تجهر للنادي أو تذهب إلى أي مكان لتجهر، لابد من فترة تمكثها تؤصل هذه المعاني في نفسك ومع إخوانك ثم تخرج.

فقال له ربه في هذه الوصايا {وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ} [المدثر: 6] قيل ما معنى لا تمنن... نريد أن نتكلم عن المعاني، نريد أن نفهم معاني الكلمات، لا يصح أن يمر عمر الإنسان؛ خمسة عشر سنة أو عشرين سنة أقل أو أكثر، ويَمُرّ على السور -حتى من الأجزاء الثمانية وعشرين والتسعة وعشرين والثلاثين- وهو لا يعرف معنى الكلمة، فلا يصح وأنت واقف تصلي ثم تأثرت في الصلاة وبعد الصلاة طفل بجانبك يسألك ما معنى هذه الكلمة؟ وجدك متأثرًا فقلت له والله لا أعرف، يقول لك: ولماذا أنت متأثر، تقول له: عندما تكبر يا بني، عندما تكبر ستكون مثلي، فيجب معرفة معاني الكلمات كخطوة أولى للفهم، أن تفهم معنى الكلمة وحبذا لو يكون مصحفك فيه معاني الكلمات في الحاشية، أي كلمة تقف أمامك

تقرأها، أي كلمة وأنت تقرأ ولا تعرف معناها تكتبها، ولا يلزم لو لم تستطع حالًا حل هذه المشكلة، ولكن اجعلها من القضايا التي في ذهنك، من القضايا التي في ذهنك أن تشتري كذا وتفعل كذا وتفعل كذا وأن تفهم كلمة كذا، فتكون هذه من القضايا التي في ذهنك وتفكر فيها {وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ} قيل: لا تمنن على ربك بكثرة ما تعطي من بذل وتضحية، وكأن هذا إشارة من البداية بأنك ستقابل في هذا الطريق كمية غير عادية من التضحيات والبذل فلا تنظر أبدًا وراءك، لا تنظر أبدًا إلى أي شيءٍ قدمته لله عز وجل، فلا يصح، لو نظرت لرجعت، لو أن الشخص نظر وراءه على ما قدمه للدين سيستكثر هذا، فمن البداية ستقدم الكثير فلا تستكثره ولا تمنَّ به على ربك فهو الذي يمن عليك أن هداك للإيمان.

يعني تخيل أنك من البداية مثلًا أقول لك تبرع ولا تستكثر الذي ستقدمه -لا أحد يستكثر مثلًا خمسة جنيهات- فهذا يعني أنه سيبذل شيئًا كثيرًا... فهذه معالم على الطريق من البداية، ألا تستكثر ما تقدمه في هذا الطريق، أريد أن أقول لك أن الصحابي لم يكن ينظر إلى المال الذي يقدمه فقط بل لا ينظر لجزء من أجزاء جسده سقط في الجهاد، كان لا ينظر إليه، عندما كان يُمسك أحدهم الراية بيمينه فتُقطع يمينه فلم يكن ينظر إلى يده التي سقطت، بل كان ينظر إلى الراية فيمسكها بيده اليسرى فتُقطع يده اليسرى فلا ينظر إليها، فيمسك الراية بعضديه، فكانوا منطلقين {وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ وَامْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ} [الحجر: 65] مُضي... لأنك ستلتفت للذي قدمته فستستكثره، هذه أحد المعاني أن الشيطان يأتيهم من خلفهم {ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَائِلِهِمْ ۖ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ} [الأعراف: 17] يُعظم لهم ما تركوه وما قدموه، ستهاجر وتذر أرضك وسماءك، ستقاتل فتُقتل وتُنكح الزوجة ويُيتم الأولاد، يُعظِّم ما تقدمه، فلا بد أن تكون عندك قاعدة {وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ}.

وقيل {وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ} ليس مع ربك فقط، ولكن حتى مع الناس، لا تُعطِ الناس عطيةً تريد بها أن تستكثر ما عندهم من المال، فلا تعطِ لأحد شيئًا وتريد منه مالًا، أو تريد منه أي شيء، وبالنسبة للداعية لا تهدِ الناس بأي وسيلةٍ كانت وتنتظر شيئًا من عندهم، أنت نور للناس، عام مثل الماء الذي ينزل من السماء ونور الشمس... لذلك ورد النهي عن منع فضل الماء عن الناس... ممنوع، والظل كذلك لعموم الناس، الذي يؤذي الناس في ظلهم، الذي يقضي حاجته في الظل لعنه النبي -صلى الله عليه وسلم-.

هناك موارد عامة لا يُستأثر بها، لا يصح لأحد أن يستأثر بها، فلا يصح لأحد أن يمن على أحد بنور الشمس، و لا بالمطر، فأنت- أي النبي صلى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- هداية عامة، رحمة عامة للناس، وكذلك الدعاة لا يمنون على الناس، يستكثرون ويطلبون ما عندهم، وأكثر شيء يضايق المدعو أن يشعر أنك تمن عليه، أنك أعلى منه، {إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ} [الكهف: 110]، فقط الفرق في الوحي، {يُوحَىٰ إِلَيَّ} [الكهف: 110]، نجد قبل أن يقول: أنا يوحى إليَّ، قال: أنا بشرٌ مثلكم، فلابد أن تراعي نفسية الناس وأنت تدعوهم، فلا يشعرون منك بأي منّ، فهذا الخُلق يُترك ويُهجر عند الداعية، سواء مع ربه أو مع الناس، {وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ}... وجامع هذه الصفات وهذه الوصايا؛ {وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ} [المدثر: 7] فعندما أقول لك تعال نحن سنسافر لكن قبل أن نسافر لا بد أن توطن نفسك على الصبر، إذًا هذا السفر ليس سفرًا عاديًا، فتخيل النبي صلى الله عليه وسلم فرد عادي يعيش في قريش، يأنف من عبادتهم للأوثان، لكن لا يعلم ماذا يفعل، فكان يعتزلهم... حُبب إليه الخلاء... فلما نزلت سورة اقرأ كانت مفاجأة، فقرأ {اقْرَأْ بِاسْمِ} وعاد بالآيات، هل يتوقف الأمر عند هذا الحد؟ لا؛ ولكن {قُمْ فَأَنذِرْ}، بما علمك الله، أنا أريدك أن تتخيل؛ أنت هكذا؛ بالنسبة لك الصدمات التي يمكن أن تأخذها، أنا مطالب بكذا وكذا! حياتك تتغير، وجهة حياتك تتغير، القرآن نزل ليغير المجتمع، فتنزل الآيات، أنا مطالب بكذا وكذا وكذا وصايا عامة.. الختام، ولربك لا لغيره، هذا هو "الإخلاص التام" لا تريد مجرد حتى أنهم يتبعوك، أو اسمك يُكتب، أو تكون مُقدَّم، أي نية أخرى تدخل اعلم أنها تُضعف من عزيمتك، {وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ} "الإخلاص"

فعلًا كمال الصبر مع كمال الإخلاص، فلما تكون لا تريد من الناس أي شيء تجدك صابرًا معهم للنهاية، أما لو أنك تنتظر شيئًا يحدث فإذا لم يحدث هذا الشيء لن تكمل، تنتظر أن يقدمونك، يبجلونك، يرفعونك، يقدرونك، يعطونك مالًا، أيا كان ما تنتظره.. حتى الهداية (يأتي النبي وليس معه أحد)[7]... أنت تتعامل مع الله.

7- [عن عبدالله بن عباس:] خَرَجَ عَلَيْنا النبيُّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ يَوْمًا فَقالَ: عُرِضَتْ عَلَيَّ الأُمَمُ، فَجَعَلَ يَمُرُّ النبيُّ معهُ الرَّجُلُ، والنبيُّ معهُ الرَّجُلانِ، والنبيُّ معهُ الرَّهْطُ، والنبيُّ ليسَ معهُ أحَدٌ، ورَأَيْتُ سَوادًا كَثِيرًا سَدَّ الأُفُقَ، فَرَجَوْتُ أنْ تَكُونَ أُمَّتِي، فقِيلَ: هذا مُوسى وقَوْمُهُ، ثُمَّ قيلَ لِي: انْظُرْ، فَرَأَيْتُ سَوادًا كَثِيرًا سَدَّ الأُفُقَ، فقِيلَ لِي: انْظُرْ هَكَذا وهَكَذا، فَرَأَيْتُ سَوادًا كَثِيرًا سَدَّ الأُفُقَ، فقِيلَ: هَؤُلاءِ أُمَّتُكَ، ومع هَؤُلاءِ سَبْعُونَ ألْفًا يَدْخُلُونَ الجَنَّةَ بغيرِ حِسابٍ فَتَفَرَّقَ النَّاسُ ولَمْ يُبَيَّنْ لهمْ، فَتَذاكَرَ أصْحابُ النبيِّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ فَقالوا: أمّا نَحْنُ فَوُلِدْنا في الشِّرْكِ، ولَكِنّا آمَنّا باللَّهِ ورَسولِهِ، ولَكِنْ هَؤُلاءِ هُمْ أبْناؤُنا، فَبَلَغَ النبيَّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ فَقالَ: هُمُ الَّذِينَ لا يَتَطَيَّرُونَ، ولا يَسْتَرْقُونَ، ولا يَكْتَوُونَ، وعلى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ فَقامَ عُكّاشَةُ بنُ مِحْصَنٍ فَقالَ: أمِنْهُمْ أنا يا رَسولَ اللَّهِ؟ قالَ: نَعَمْ فَقامَ آخَرُ فَقالَ: أمِنْهُمْ أنا؟ فَقالَ: سَبَقَكَ بها عُكّاشَةُ./البخاري (٢٥٦ هـ)، صحيح البخاري ٥٧٥٢ • [صحيح].

{وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ}، معانٍ عالية، يحتاج فترة طويلة جدًا أن يجاهد الإنسان نفسه حتى يتخلق بهذه الأخلاق، ألا يصرف بصره إلى الناس {وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ} أنت تعامل الله لا تعامل الناس! وأنت تعامل الناس تذكر {لَّا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا} [الشورى: 23]، لا أريد أي شيء، لا أريد أي شيء إلا رضا مولاي، فحقًا الداعية عندما يكلم ناس، يهينونه، يضربونه، يؤذونه، هو لا ينتظر شيئًا، هو ينتظر أجره يوم القيامة، فليس عنده مشكلة... أي سيناريو سيحدث لك لن يفرق معك، لأن أنت تنظر إلى هناك، أنت مركز، ولهذا عندما قال عبدالله بن جحش: (أسألك رجلًا كافرًا صنديدًا يبقر بطني ويجدع أنفي ويقطع أذني، فألقاك فتسألني فأقول) [8]، هو يخطط لهناك -للآخرة- ليس لهنا، (فألقاك فتقول لم؟ فأقول فيك فآخذ الأجر)... {وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ}. وكأن هذه الوصايا للداعية الذي يتلقاها بنوع من الهدوء والمعايشة فيُقطع ب {فَإِذَا} كأن إذا الفجائية هذه {فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ} [المدثر: 8] كأنها تربية على أن الوقت يداهم {اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ} [القمر: 1] {اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ} [الأنبياء: 1] {فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ} كأن النقر في الناقور هذا مثل جرس التنبيه، كأنك لا بد أن تسبق هذا النقر، وأن يكون نقرك في آذان الناس أسبق من هذا النقر، قبل أن يقعوا في جهنم، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم: (وأَنْتُمْ تَفَلَّتُونَ مِن يَدِي) (مَثَلِي ومَثَلُكُمْ كَمَثَلِ رَجُلٍ أَوْقَدَ نارًا، فَجَعَلَ الجَنادِبُ والْفَراشُ يَقَعْنَ فيها، وهو يَذُبُّهُنَّ عَنْها، وأنا آخِذٌ بحُجَزِكُمْ عَنِ النّارِ، وأَنْتُمْ تَفَلَّتُونَ مِن يَدِي) [9] فكأنك لا بد أن تسابقهم، النبي صلى الله عليه وسلم يقول: (نفس تفلتت مني إلى النار... فبكى) [10]، كأن {فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ} تهييج للداعية أن يسبق هذا الصوت، وكأن هذا أيضًا هو التركيز في الدعوة، بماذا ينذر؟ ينذر بهذا اليوم -أي يوم القيامة-، وأي مجتمع كما قلنا مر بمراحل طويلة من الموت (موت النفس، الضلال، الظلام) تبدأ معه بالإنذار والكلام عن الدار الآخرة فقط، حتى قيل قبل أن تتكلم معه عن صفات الله والكلام عن عظمة الله، كلمه أولًا عن الدار الآخرة، هو سيخاف أن هناك امتحانًا، ثم بعد ذلك ماذا أذاكر؟... فقبل أن تكلم شخصًا عن المنهج وماذا يذاكر أخبره أولًا أنه سيكون هناك اختبار، قبل أن

---

[8]- [عن سعد بن أبي وقاص:] حدَّثَني أبي أنَّ عبدَ اللَّهِ بنَ جحشٍ قالَ لَهُ: يومَ أُحُدٍ ألا ندعوا اللَّهَ فخلَوا في ناحيةٍ، فدعا عبدُ اللَّهِ بنُ جحشٍ فقالَ: يا ربِّ إنِّي أقسَمتُ عليكَ إذا لقيتُ العدوَّ غدًا، فلقِّني رجُلًا شديدًا بأسُهُ شديدًا حردُهُ أقاتلُهُ فيكَ ويقاتلُني، ثمَّ يأخذُني فيجدَعُ أنفي وأذُني ويبقرُبطني، فإذا لقيتُكَ غدًا قلتَ: يا عبدَ اللَّهِ من جدعَ أنفَكَ وأذنَكَ؟ فأقولُ فيكَ يا رب وفي رسولِكَ، فتقولُ: صدقتَ قالَ سعدٌ: فلقد رأيتُهُ آخرَ النَّهارِ وإنَّ أنفَهُ وأذنَهُ لمعلَّقتانِ في خيطٍ/العراقي (٨٠٦ هـ)، تخريج الإحياء ٤٧/٥ • إسناده جيد

[9]- [عن جابر بن عبدالله:] مَثَلِي ومَثَلُكُمْ كَمَثَلِ رَجُلٍ أَوْقَدَ نارًا، فَجَعَلَ الجَنادِبُ والْفَراشُ يَقَعْنَ فيها، وهو يَذُبُّهُنَّ عَنْها، وأنا آخِذٌ بحُجَزِكُمْ عَنِ النّارِ، وأَنْتُمْ تَفَلَّتُونَ مِن يَدِي./مسلم (٢٦١ هـ)، صحيح مسلم ٢٢٨٥ • [صحيح].

[10]- فلم نقف على هذا الحديث فيما اطلعنا عليه من كتب السنة [موقع إسلام ويب]

تأتي وتقول لي أنت مطالب أن تذاكر كذا وكذا وكذا قل لي سيكون هناك اختبار، أصدق بوجود اختبار فأنا إذًا الذي سأسألك بلهفة ماذا أذاكر حتى لا أرسب.

فلابد أن نصدق أولًا.. وهذه الوازعة إذا لم تكن موجودة لن ينفع أي كلام تقوله له، ولذلك آخر السورة تجد قمة الإعراض، وربنا يبين أن سبب هذا الإعراض {كَلَّا ۖ بَل لَّا يَخَافُونَ الْآخِرَةَ} [المدثر: 53] سبب الإعراض هو أنه غير مصدق أن هناك آخرة، لو صدَّق لمرّت بقية الخطوات مرورًا منطقيًا، وهذا ورد كثيرًا في القرآن... مثلما ورد في سورة الفرقان يقولون شبهات، {وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَٰذَا إِلَّا إِفْكٌ افْتَرَاهُ} [الفرقان: 4]، {وَقَالُوا مَالِ هَٰذَا الرَّسُولِ} [الفرقان: 7]، وقالوا...وقالوا، شبهات، فربنا يقول القضية ليست في الشبهات، {بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ} [الفرقان: 11]، هو مشكلته أنه غير مصدق أن هناك يوم قيامة، {وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا} [الفرقان: 11]، فتجد كثيرًا في القرآن، أنه يفتن بسبب إنه غير مصدق، {وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا} [الأنعام: 112].. {وَلِتَصْغَىٰ إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ} [الأنعام: 113] {وَلِتَصْغَىٰ} -أي ولتميل- ، من الذي يفتن بالشبهات والشهوات؟ الغير مصدق أنه يوجد آخرة، {وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ} [الإسراء: 45]، لماذا لا يؤثر فيهم القرآن؟ {وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا} [الإسراء: 45]، ستجد كثيرًا في القرآن أن السبب الرئيسي لفتنتهم واستمرارهم في الشهوات، الفجور، الشبهات، الإعراض كل هذا لأنه غير مصدق أن هناك آخرة... فالبداية أنك تركز على الدار الآخرة، {كَلَّا ۖ بَل لَّا يَخَافُونَ الْآخِرَةَ} [المدثر: 53]، هذا سبب الإعراض الذي سنراه في السورة.

{فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ (*) فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ} [المدثر: 8-9]: من جمال وإبهار القرآن طريقة عرضه؛ فلا يخاطبك: احذر هناك يوم آخر، فيكون الرد: لا... لا يوجد يوم آخر، فيقول له لا! بل يوجد، فيقول له: لا... لا يوجد، إنما يتكلم أن الموضوع منتهٍ، مثل قوله تعالى {بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ}، ليس مثلًا "بل كذبوا بالساعة والساعة حق"، لا، { بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا} [الفرقان: 11]، {وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا} [الفرقان: 13]، يشرح ما سيحدث، الموضوع منتهٍ، يتكلم عن حقائق ومسلمات ويصف أحداثها.

{فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ}، الموضوع منتهٍ ، هو يصفه له ولا يقنعه أنه موجود، هو يقول له ماذا سيحدث؟ مثل من يقال له: يوجد اختبار، يقول: لا، فيقول له: يوجد اختبار وأنت سترسب، يقول له: لكن لا يوجد اختبار، يقول له: بل أنت ستضرب ضربًا شديدًا عند رسوبك... هو يتكلم عن الحقائق فهذا تأثير نفسيّ، هذا ضغط نفسيّ، أن تتكلم عن وقائع، فمثلًا هو يقول لك: ليس هناك آخرة، وأنت تقول: "اللهم نجنا يا رب من العذاب" أنت موقن أن هناك آخرة، وهو يقول ليس هناك آخرة، أنت تكمل فعندما يجد كلامك ووجهك مصدق أن هناك آخرة ويتكلم عن شيء، فمثلًا أنت عندما تحب أن تمزح مع أحد تقول له انتبه لما يأتي من خلفك؛ فطريقة وجهك وأنت تمزح يظهر عليك المزاح، إنما لو هناك سيارة ستصدمه حقيقة فلن تقول له احذر السيارة بهدوء، بالطبع لن تكون بنفس الطريقة، ستتكلم بنوع من النذارة، تنذر، ولهذا من اللطائف يقولون كيف عرف سيدنا يعقوب في المرة الأولى أنهم كانوا يكذبون والثانية قارب أن يصدقهم لماذا؟

في المرة الأولى عندما جاءوا، تخيل أخوات جاءوا أبوهم يريدون أن يقولوا له: إن ابنك يوسف أكله الذئب، أول ما سيأتون أول كلمة سيقولونها: الذئب! لن يقولوا {إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ} [يوسف: 17]!

في الثانية بمجرد دخلوهم عليه قالوا {إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ}، أي كان حقيقة، أول ما دخلوا، لم يقولوا نحن عندما ذهبنا ثم... لم يقصوا القصة، لا، بل قالوا {إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ} [يوسف: 81].

فأنت دائمًا عندما تبدأ تتكلم عن الوقائع سيظهر عليك، وهذا هو دور الداعية، أن يحدث الناس عن ما يرى، الرسول صلى الله عليه وسلم كان عندما يحدث أصحابه يقولون: فكأنه رأي عين، فأنت تكلمه عن الذي أنت تراه، {أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ} [الفيل: 1]، فأنت لابد أن تبصر أولًا فعندما تكلمهم يصدقوك.

{فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ (*) عَلَى الْكَافِرِينَ..} [المدثر: 9-10] لو أردت أن تكمل فسترى ما سيحدث لك!.. {غَيْرُ يَسِيرٍ}.

وهذا إشارة خاطفة ليوم القيامة.

ثم نبدأ بأصناف أعداء الدين.. أول صنف ينصرف عن الدين له وصف وله طريقة فما هي صفته وكيف ينصرف عن الدين؟؟

▪القرآن في سورة المدثر ذكر ثلاث أنواع انصرفوا عن دعوة النبي صلى الله عليه وسلم.. كل نوع غير الآخر... النوع الأول وهو أخطرهم.. النوع المنعَم عليه.. منصب كبير.. وزير مثلًا.. وهو مستفيد بمنصبه هذا من الوضع القائم.. فهؤلاء الناس ربنا يقول فيهم: {ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا (*) وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَّمْدُودًا (*) وَبَنِينَ شُهُودًا} [المدثر: 11-13]... تجد أن كلمة (ذَرْنِي) أو ما يشابهها من معانٍ جاءت في بدايات السور كثيرًا، أظن أنني قد ذكرت هذا المعنى في آخر سورة العلق، يقول الله {كَلَّا لَا تُطِعْهُ} [العلق: 19] نفس الفكرة، لا تنشغل به، {فَذَرْنِي وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا الْحَدِيثِ} [القلم: 44] {ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا} [المدثر: 11] {كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِب} [العلق: 19] وفي سورة القلم تجدها كثيرًا، لا تنشغل بهم، لأنك في بداية انطلاقك، هم سوف يحاولون أن يشغلوك، انتبه، سيحاولون إشغالك، أصوات مرعبة، أشياء مرعبة، تهديدات، دنيا تُعرَض عليك، أيًا كانت الوسائل، لا تنشغل بهم، لك ربٌ يدافع عن دينه، إنَّ الله ناصرُ دينه، لا تنشغل بهم، إذًا فالبداية قبل أن يُعلّمك القرآن كيفية دعوته، يجب أن تَثبُت اعتقاداتك أولًا، أنَّ هذا لن يضرني شيئًا، ولن يضر الدين شيئًا، فيجب أولًا أن يُؤسَّس قلبك على هذه المعاني.

{ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا (*) وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَّمْدُودًا} قيل خلقتُ وحيدًا أي خلقته وحدي ولم يخلقه أحد معي، أي أنَّ الله يقول فأنا أُهلكه وحدي، كما أني قادر على خلقه وحدي فأنا أُهلكه وحدي، لا أحتاج أحدًا، الله سبحانه وتعالى خلقه وحده، {وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا} [الكهف: 51] ويهلكه وحده سبحانه وتعالى، أو {ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا} أي ذرني ومن خلقته ونزل من بطن أُمه وحيدًا لا مال معه ولا ولد، أي إمّا وحيدًا تعود إلى الله، أو وحيدًا عائدة إلى الوليد بن المغيرة في الآية، واضح؟ إذًا قلنا أهم شيء أن نحلل المعنى.

توقفنا عند قول الله عزَّ وجل {ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا} قلنا وحيدًا إمّا تعود على الله عزَّ وجل أو على الوليد بن المغيرة، فذرني ومن خلقته وحدي فأنا أُهلكه وحدي.. هذا معنى، أو ذرني ومن خلقته ونزل من بطن أمه وحيدًا لا مال معه ولا ولد، أفيستكبر الآن بعد أن أنعمتُ عليه؟! {ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا} يعدد الله نعمه عزَّ وجل عليه، {وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَّمْدُودًا} أي أنَّ الله لم يعطه فقط أموالًا إنما

أعطاه مالًا وتجارة قابلة للنماء، كان هناك من هو أقوى وأذكى من الوليد، فالقضية ليست ذكاء أو قوة، لكن هذا فضل من الله عزَّ وجل، فيُذكره الله بالنعم، {وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَّمْدُودًا (*) وَبَنِينَ شُهُودًا} [المدثر: 12-13] ما معنى شهودًا؟ قيل {وَبَنِينَ شُهُودًا} أي يشهدون معه مجالسه، ما المشكلة أن يشهدوا معه مجالسه؟ قيل أنهم غير منشغلين بالتجارة، رزقه الله عُمّالًا يرفعون عنه أعباء التجارة والأموال، ويجلس فرحًا بأولاده يجلسون بجانبه، هذا من النعيم أن يجلس وحوله أولاده، لا أن يكونوا مسافرين، أو منشغلين في أعمالهم طوال الوقت، هم لا يحتاجون أن يتفرقوا عنه. أو قيل لم يصبهم بلاء فيموتوا {وَبَنِينَ شُهُودًا} كل هذه نعم، ومن المتوقع أن يقابلها بالشكر {وَمَهَّدتُّ لَهُ تَمْهِيدًا} [المدثر: 14] مهد كمهد الطفل... في آخر سورة الروم {وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ} [الروم: 44]، يُسهّل طريقه للجنة، {وَمَهَّدتُّ لَهُ} أي كان طريقه مُيسَّرًا في المال والتجارة {وَمَهَّدتُّ لَهُ تَمْهِيدًا (*) ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ} [المدثر: 14-15] لم يشكر النعمة بل كان طمّاعًا، {كَلَّا} [المدثر: 16] كل هذه النِعَم سوف تُصرَف عنه ويُعاقَب في الدنيا قبل الآخرة، لماذا؟ هذا هو الصنف العنيد.

الصنف الأول... العنيد {إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيدًا} [المدثر: 16] الآية: هي الشيء المبهر الواضح، ليست آية واحدة بل آيات {إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيدًا} كان عنيدًا جاحدًا يعلم الحق ويُعرِض عنه، مُعانِدًا {سَأُرْهِقُهُ صَعُودًا} [المدثر: 17] الإرهاق تكليف بما لا يُطاق، {وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا} [الكهف: 73] سيدنا موسى يقول للخضر لا تكلفني شيئًا لا أقدر عليه، رهقه: أي يُصيبه رهق، {سَأُرْهِقُهُ} هذا الرهق سوف يأتي عن ماذا؟ {صَعُودًا} يُكلَّف أن يصعد في جهنم، أيًا كان، رُوي أنها صخرة أو جبل في جهنم، جبل عظيم ولا يستطيع صعوده إلا بالكاد، ويروى أنه يضع يده فتذوب فيضع رجله فتذوب، حتى يكون قد قارب أعلاه، فيُضرَب فينزل مرة أخرى، يُكلَّف عذابًا شاقًا أن يصعده يوم القيامة، لماذا؟ لماذا هذا الوصف؟

من القواعد القرآنية، نحتاج فتحًا من الله حتى نفهم، كل نعيم وكل عذاب مقابل للطاعة وللمعصية، النعيم يُذكَر فيه تسلية للطاعة التي قمت ببذلها، والعذاب كذلك حسب المعصية، لماذا هنا هذا الوصف من العذاب؟ {سَأُرْهِقُهُ صَعُودًا}

يخبرك الله لماذا؟ {إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ} [المدثر: 18] عندما تأتي "إِنَّهُ" بعد جملة فهي تفيد التعليل أي السبب، تعليلية توضح لك لماذا، {يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ} [الحج: 1] لماذا؟ لماذا اتقوا؟ {إِنَّ} هنا

للتعليل {إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ} [الحج: 1] الأمر كبير، {إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ} ما معنى {فَكَّرَ وَقَدَّرَ}؟ عندما سمع القرآن، سمع الآيات الواضحات، وعرف أنَّ هذا ليس كلامًا عاديًا... مثلًا كأن تسير فتجد الأرض انشقت إلى نصفين ثم عادت مرة أخرى أو البحر أيضًا، هذه ظاهرة ليست طبيعية هذه آية، أو يُبرئ الأكمه والأبرص، آيات، فهو سمع القرآن وعرف أنَّه كلام غير عادي، فظل يفكر، هل هذا من عند الله؟ هل سوف أؤمن؟ هل سأتخلى عن منصبي؟ ماذا ستقول عني قريش؟ ظل يفكر ويحسب ويجرب الأمر في رأسه كثيرًا، لو آمنت ماذا سيكون وضعي؟ هل سأكون مع هؤلاء المستضعفين؟! مع بلال وعمار؟! هل أنا سوف أتساوى مع هؤلاء! ولو لم أؤمن ماذا سأقول عن هذا الكلام الذي يُقال؟ شعر؟ هو ليس بشعر، كلام كُهّان؟ لا ليس كلام كُهّان، فظل يفكر ويحسب، وكيف يسير كل خطوة، وماذا سيقول لو فعل كذا وماذا سيُخبر قريش لو سألوني، هو سيد في قومه، جلس يفكر ويُقدّر الأمورً، ليس أي كلام، هذا هو الصنف الأول الخبيث، كأن الله يُعرّف للنبي صلى الله عليه وسلم أن هناك مجالسًا تُقام وهو لا يعلم عنها، هناك أناس يفكرون ويخططون لمنع الدين، ويقول الله له قبلها لا عليك منهم أنا أكفيك، {ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ} نحن جالسون هنا وهناك من يخطط لمنع ومحاربة دين الله عزَّ وجل، يفكرون ويقدرون الأمور، ليس أي كلام اعتباطي.

الشخصية الثانية... شخصية أبو جهل عندما يسمع {عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ} [المدثر: 30] الملائكة تسعة عشر، يقول مستهزئًا: ما المشكلة "تِسْعَةَ عَشَرَ" أنا آتي بتسعة عشر رجل، استهزاء وسخرية متكبرة، يقول أي كلام عندما يستمع إلى أي حديث، سنّة لعق الأصابع بعد الأكل مثلًا، يستهزئ بأي شيء يسمعه، النبي صلى الله عليه وسلم تزوج تسعًا فيستهزئ، إنما هناك شخصية لا تقول أي كلام- كالشخصية السابقة- وهي الأخطر، مثل المستشرقين، يدرس ما عندك أولًا ويستمع إلى ما عندك ثم يأتي لك بوصف مَن سمع الكلام، وسمع المشكلة ويفكر ويُقدّر ويَزِن الأمور.

سمع كلامك فجلس يفكر ويقدر ويزن الأمور... فجاءت جملة اعتراضية دعاء عليه {فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ (*) ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ} [المدثر: 19-20] دعاء عليه، اعتراض ما بين الأفعال التي قام بها.

إذًا انتبهوا معي، الأفعال التي فعلها الوليد عُطفَت كلها على بعضها البعض ب(ثُمَّ)؛ {ثُمَّ نَظَرَ (*) ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ (*) ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ} [المدثر: 21-23] هو مرَّ بمراحل أثناء التفكير، انظر إلى الآيات، إعجاز! تحكي تفاصيل وجهه، ونفسيته، وما يدور بداخل رأسه، يُفكّر، ثم اعْتُرِضَت الآيات بدعاء

عليه، لأنَّ الذي يصل لمرحلة سماع الحق ويعلم أنَّه حق ويُفكّر في كيفية الخروج عن هذا الحق يستحق اللعن، {فَقُتِلَ}، أي لُعِن {فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ (*) ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ}، وبعد ذلك رجع الكلام مرة أخرى، ماذا فعل؟ أخذ يفكر، {ثُمَّ نَظَرَ}؛ قيل {نَظَرَ} يعني بعدما جمع مجموعة أفكار أخذ ينظر فيها، أو {نَظَرَ} على وجوه قومه، هم ينتظرونه فأخذ يرسم الجديَّة كأنه يمثّل أنه سيصِل لحلّ، كأن الذي سيقوله هذا رأيه الذي هو مقتنع به فعلًا، {ثُمَّ نَظَرَ} أخذ ينظر ماذا سيقول؟ فلم يعرف ماذا سيقول..

{ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ} لم يعرف فأخذ وجهه يعبس وجبينه يقطُب، وجهه أصبح كالحًا مسودًّا، وبعد طول تفكير قرر الإعراض، لن أستطيع أن أمشي في هذا الطريق!

{ثُمَّ أَدْبَرَ}؛ أهم أسباب الإدبار: الاستكبار، وقيل أن الوليد لما سمع القرآن جاء يقول عنه كلمات تُكتب في علوم القرآن الآن: "إن عليه لحلاوة، وإن أعلاه لمثمِر وإن أسفله لمغدِق.."، قال كلامًا عظيمًا عن القرآن، فأبو جهل جاء وجلس بجانب الوليد، يقول له: أنا حزين جدًا، فالوليد يقول له: لماذا؟ يقول له حزين لأجلك جدًا، لكن لا تقلق قومك يجمعون المال لأجلك، فيقول له: لي أنا؟!!

يقول له: ألم تذهب عند محمد وقررت أن تُسلم لأنك محتاج للمال، فنحن سنجمع لك المال، قال له: لقد علموا أني أكثرهم مالًا!!

أخذ يحرك في داخله نوازع الشر والكبر ويضغط عليه حتى انفجر، {ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ}..

انتبه للخطوات التي مرَّ بها الوليد، نحن قلنا كلها جاءت بحرف العطف (ثُمَّ)، (ثُمَّ) هذه تفيد أنه في كل خطوة كان يتأنى، فكَّر وقدَّر ثم نظر ثم عبس وبسر ثم أدبر واستكبر..

بمجرد أن وجد حلًا لم يتمالك نفسه {فَقَالَ..}، وجد كلمة يقولها {فَقَالَ}، يفكر ويفكر وأول ما يجد كلامًا: جهزوني أنا سأخرج على الهواء مباشرة الآن لأتكلم! {فَقَالَ إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ} [المدثر: 24] كأنه أخيرًا وجد مخرجًا يخرج منه.

{إِنْ هَٰذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ} [المدثر: 25]، كان يكفي أن يقول عنه سحر، كأنه يردّ على نفسه، هو يعرف أن هذا ليس قول بشر، فهو يقول للناس: هذا قول بشر، أصلًا ليس هناك تناسق بين أنه سحر وأنه قول بشر؛ إما أنه قول بشر أو يقول أنه سحر، لا، هو يريد أن يؤكّد للناس: الذي سيقع في

صدروكم عندما تسمعون هذا الكلام أنه ليس قول بشر، لا، هو قول بشر وبصيغة الحَصْر: {إِنْ هَٰذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ}، فلما وجد المخْرَج لم يتمالك نفسه.

نعود... لماذا عذابه {سَأُرْهِقُهُ صَعُودًا}؟ لماذا {سَأُصْلِيهِ سَقَرَ} [المدثر: 26]؟ الوليد بن المغيرة عُرِض أمامه الدين وكانت أمامه عقبة يجب أن يقتحمها، فكَّر فتردَّد، تكاسل أن يقتحم العقبة، فربنا يقول له: أنت لم تقتحم العقبة في الدنيا سأجعل لك عَقَبة كَؤُودًا لن تعبُرها أبدًا يوم القيامة، وهذه رسالة لنا: الذي يخاف أن يأخذ قرارًا في الدين، عذابُ الله -عز وجل- في الآخرة أعظم، {وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ..} [العنكبوت: 10] المصيبة أن يُساوي بين الابتلاءات الدنيوية وبين عذاب الله، {جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ} [العنكبوت: 10]! هذه مصيبة وخلل في التفكير، الأمر هناك أعظم من ذلك، كل الذي في الدينا لا يساوي شيئًا، فلا يصح أن تساوي بينهما، {تَاللَّهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (*) إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ الْعَالَمِينَ} [الشعراء: 97-98] خاف من الظالم كما يخاف من ربنا!

{سَأُرْهِقُهُ صَعُودًا}...

والسَّقر التي لا تُبقي ولا تَذَر وتَلْفَح، كل الذي معه سيضيع، هو فرح بما معه من المال والبنين، {سَأُصْلِيهِ سَقَرَ (*) وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ (*) لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ (*) لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ (*) عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ} [المدثر: 26-30] ، {لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ} جمهور المفسرين يقولون أن لوَّاحة أي تلفح البَشَر جمع بَشَرة، وليس بشر أي الناس، بشر يعني جلد، تلفح الجلد، تُسوِّد الجلد.

وقيل عن الحسن البصرى أنه قال: لوّاحة للبشر أي تُعرَض للناس.

لكن ستجد في أغلب الكتب القول الأول فقط: {لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ} أي تلفح الجلد تسوّده، كأنه هو لما بسر وجهه اسودَّ وهو يفكر، فعُوقِب أن تلفحه النار، فأول صنف: العنيد الذي يعرف الحق ويقرأ، مستشرِق، يسمع ويبدأ يفكر كيف يرد على هذا الكلام؟ هناك مستشرقون جاؤوا وأخذوا كتب الدين ليستخرجوا منها شبهات، فقرأ فأسلم، اقتحم العقبة.

وهناك من قرأ في ديننا ورأى الآيات {إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيدًا..}، واستمر على الإعراض، فهذا ينطبق عليه {سَأُرْهِقُهُ صَعُودًا}؛ أبصر الحق ثم أعرض عنه.

الصنف الثاني: الصنف المتكبّر، الذي يُلقي أيّ كلام، وكما قلت لكم يسمع أي حديث مثل: (إذا ولغَ الكلبُ في إناءِ..) [11] فيستهزئ، استهزاء بأي شيء يَعرِض له دون تفكير أو تقدير مثل الأول، الأول عنده جلسات خاصة أنت لا تعرفها.

ربنا يقول للنبي صلى الله عليه وسلم من البداية هناك جلسات تحدث أنت لا تعرفها، هم يقولون، لا تشغل بالك بهم، استمر، وفي واحد يسمع؛ فكما يوجد دعاة للباطل هناك علماء تأصيليُّون للباطل، يخرج في برنامج يسمع أي كلمة، أي نقاش، يرد عليه باستهزاء وحسب، وهناك أناس جالسون خلف الأسوار، خلف الكاميرا، يخططون ويفكرون ويقدرون، تقدير الكلام، وليس أي كلمة تُقال، فالوليد لا يصح أن يقول شاعر، كيف شاعر؟! نعم هناك من قال عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه شاعر، الوليد لم يقلها لأنه يعرف معنى أن شخصًا في مكانته يقولها، سيقولون له: لكن هذا ليس شعرًا، فيجب أن يقدّر الكلام قبل أن يقوله.

الصنف الثالث: ربنا –سبحانه وتعالى– بعد ذلك ذكر أن الآية أحيانًا تهدي أناسًا وتضل آخرين، تكون فتنة للكفار وزيادة يقين للمؤمنين، كما في آية {عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ}، ثم بعدها يقول ربنا –سبحانه وتعالى–: {وَاللَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ (*) وَالصُّبْحِ إِذَا أَسْفَرَ} [المدثر: 33-34]، إذ أدبر (إِذْ) للماضي، وكأنها بشرى سيبدأ الظلام ينجلي والصبح سيبدأ يُسفِر ويأتي خير كثير.

{إِنَّهَا لَإِحْدَى الْكُبَرِ} [المدثر: 35] أي النار أعظم العظائم، نحن نقول عجائب الدنيا السبعة، أما النار فهي {إِحْدَى الْكُبَرِ}؛ قيل البلايا الكبرى لا أكبر منها، إحدى قيل: أعلاهم.

{إِنَّهَا لَإِحْدَى الْكُبَرِ (*) نَذِيرًا لِّلْبَشَرِ (*) لِمَن شَاءَ مِنكُمْ أَن يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ} [المدثر: 35-37]؛ قيل يتقدم في الجنة، و يتأخر في النار.

{كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ} [المدثر: 38] كلٌّ مرهون بأعماله في النار، ويجب أن تفك نفسك، {إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ *فِي جَنَّاتٍ يَتَسَاءَلُونَ} [المدثر: 39-40]..

---

[11]- [عن أبي هريرة:] إذا ولغَ الكلبُ في إناءِ أحدِكُم، فليغسلهُ سبعَ مرّاتٍ، وإذا انقَطعَ شَسعُ أحدِكُم، فلا يَمشِ في نعلِهِ الأخرى، حتّى يُصْلِحَها/ أحمد شاكر (١٣٧٧ هـ) ، مسند أحمد ١٨٤/١٣ • إسناده صحيح • أخرجه أحمد (٧٤٤٠)، والنسائي في «السنن الكبرى» (٩٧٩٧).

حتى لا أطيل عليكم –بإذن الله الدرس القادم– نكمل الجزء الذي بقي من سورة المدثر وندخل في سورة القيامة.

أسأل الله أن يعلمنا ما ينفعنا وينفعنا بما عملنا، وأن يزيدنا علما، وأن يستعملنا في طاعته، أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم..

سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك.

وجزاكم الله خيرًا.